الفصل الحادي عشر

بين السيد والأمير

«باستطاعتي تجهيز ألفٍ من الرجال المدربين والمسلحين»

- إريك برنس، مالك شركة بلاك ووتر وشركة غريستون

«نعم،... إلى الجحيم أيها الجنجاويد»

- مدير تطوير الأعمال في شركة بلاك ووتر

بلهجة مفعمة بالحماس والتوقد قال لي غاري جاكسون، رئيس شركة بلاك ووتر: «إننا نسعى إلى أن نصبح شركة عسكرية خاصة»، مشيراً إلى أن بلاك ووتر أسرع الشركات الأمنية الأمريكية نمواً لديها طموحات تتجاوز كثيراً الوظائف التي تؤديها بموجب عقودها الحالية مع الحكومة الأمريكية. لقد كان للسجل الفاضح المثير للجدل لشركة النتائج التنفيذية وخليفتها ساندلاين تأثير مشوّه في مصطلح «الشركة العسكرية الخاصة» بربطه بانطباع بغيض عن المرتزقة الأجانب الذين يستولون على ثروات المناجم بعد نزعها من سيطرة جماعات المقاومة المحلية. ويبدو أن هذا الانطباع لم يمنع غاري من الافتتان بالفرص التوسعية المستقبلية المحتملة في نشاط بلاك ووتر.

أتيت إلى المقر الرئيس لشركة بلاك ووتر ومركز تدريب المنتسبين إليها في مدينة موي-كوك، في ولاية كارولينا الشمالية، للاجتماع بغاري جاكسون ومدير تطوير الأعمال، جيروم ماكلولي؛ كي أعرف منهما المزيد عن التطورات السابقة والخطط المستقبلية لبلاك ووتر. غاري جاكسون هو رجل ناهض الهمة في بداية الأربعين من العمر، عريض المنكبين مفتول العضلات، له لحية كعثنون التيس يتخللها الشيب، وله حضور يطغى على المكان الذي يوجد فيه. يصف غاري نفسه بأنه مدرب سابق في وحدة قوات سيل ويفتخر بأنه عضو في جمعية المتعافين من إدمان الكحول. أما جيري ماكلولي فهو طويل القامة

ضامر الجسم، وسبق له أن خدم ضمن قوات سيل، وهو هادئ متحفظ على النقيض من غاري المتقد المنفتح.

وبعد الاعتراف المفاجئ الذي صدر عن غاري حول طموح بلاك ووتر، فإن كلمة «المرتزقة» وليس «العسكرية» هي أول ما يخطر بالبال. وذكّرت غاري بأنه لو ذهب إلى وسائل الإعلام بهذا العرض المتفائل، لإنشاء جيش كامل التسليح من المرتزقة يقدم خدماته مقابل أجر، لأصيب الإعلاميون بالصدمة والذعر. ويبدو أن غاري قد نسي السلبية العالقة في انطباع الرأي العام عن الجنود المرتزقة الذين يقاتلون بالأسلحة النارية مقابل أجر معين، وهو أمر في حَدِّ ذاته مدهش؛ لأن بلاك ووتر أصبحت الآن عضواً في جمعية عمليات السلام الدولي. وتقوم هذه الجمعية بتنظيم المحاضرات، وعقد الندوات والمؤتمرات، وغيرها من النشاطات الإعلامية لنشر الوعي وتعزيز استخدام الشركات العسكرية الخاصة في دعم جهود الأمم المتحدة في حفظ السلام. وهو أمر بعيد الاحتمال وإن لم يكن بعيد المنال.

ولتقويم قابلية هذه الفكرة للتطبيق في الواقع العملي، قمنا بمناقشة أشهر العمليات التي قام بها المرتزقة من القطاع الخاص، واتفقنا على أن أنغولا عام 1994، وسيراليون عام 1998، وبوغينفيل عام 1997 كانت أسوأ الكوارث التي خلفت أضراراً جسيمة لا يمكن التلطيف من حدتها. ويرفض غاري فكرة احتمال وجود أي شيء غير أخلاقي أو مشكوك فيه من الناحية الأخلاقية أو الفلسفية في ممارسات الجنود المستأجرين، ويركز بدلاً من ذلك على أن إدارة تم سبايسر في المثالين الأخيرين المذكورين آنفاً هي السبب وراء ما حدث من إخفاق. ويشير غاري إلى أن جيشاً محرراً من القيود في الميدان يمكنه أن يغيّر مسار التاريخ حين يخلع الحكّام الطغاة، ويحقق الأمن، وينعش الحكم الديمقراطي.

«يمكننا نشر جيش كامل أو مجموعة عملياتية على مستوى كتيبة في أي مكان في العالم. ويمكننا تقديم الإسناد الجوي، والنقل والإمداد، وكل ما يلزم لتحقيق الاستقرار والأمن في أي منطقة... وسنملك القدرات الكاملة للحلول محل الجيش النظامي في بعض العمليات».

ويستشهد غاري بدارفور بوصفها أحدث عروض بلاك ووتر للعمل. وقد وصف كولن باول ما يحدث في السودان بأنه جريمة إبادة بشرية، لكن في ظل انشغال أكثر القوات الأمريكية في العراق، فإن الولايات المتحدة ليس لديها القوة الكافية من الرجال لنشر جنودها لتغيير الأوضاع هناك: «والأمم المتحدة تحتاج أبد الدهر لفعل شيء ما، في حين أننا جاهزون للتحرك رهن الإشارة. ويمكننا إرسال مئة شخص لاستكشاف الأمر أولاً»، ثم انهال غاري عليّ بأفكاره المتفائلة كالمدفع الرشاش: «ثم نرسل الرجال والمعدات». ثم أشار بيده إلى صورة حديثة التقطت في العراق لثلاث طائرات مروحية صغيرة من صنع شركة بوينغ تطير في خط متتابع خلف رتل من الآليات المصحفة، وفي المقدمة ثلة من الرجال شاهرين أسلحتهم، ويرتدون دروعاً واقية من الرصاص، ويحملون مزيداً من مخازن الذخيرة.

«لقد قمنا بتجهيز طائرة كاسا 212 بمدافع رشاشة، ويمكننا الآن التحليق والالتفاف بزاوية 38 درجة - وراح غاري يحاكي بكفه حركة الطائرة وزاوية طيرانها- «وحين نعثر على الأشرار، فسننقض عليهم هكذا». ويبتسم جيري ويقول متعاطفاً بابتهاج: «نعم، إلى الجحيم أيها الجنجاويد». وانفجر الاثنان بالضحك الشديد غير المتكلف على تلك النكتة.

والجنجاويد هم قوات الميليشيا التي تستخدم الجمال في تنقلها، وتقوم بعمليات القتل، والاغتصاب، وحرق القرى في دارفور. ونظراً إلى تلكؤ المجتمع الدولي في التجاوب مع هذه المحنة، وفي الوقت الذي تواصل فيه ميليشيات الجنجاويد عمليات القتل الجماعي لسكان جنوب غرب السودان، فإن قلة هم الذين سيعارضون الفكرة القائلة: إن شركة أمنية خاصة ستجعل من التدخل الإنساني خياراً أسهل، وأسرع، وأقل كلفة، أمام القوى الغربية. لكن مع ذلك، وعلى الرغم من النوايا الحميدة التي يظهرها المتحمسون لهذه الفكرة في هذه المرحلة الأولية، فإن تمكين القطاع الأمني الخاص الذي يملك القدرة والإرادة على شن هجوم عسكري مقابل أجر مالي متفق عليه يمكن أن يكون قفزة كبيرة في اتجاه خطير. ذلك أن 15% من تعاقدات بلاك ووتر الحالية، وبحسب ما يقوله غاري، هي عقود تتعلق «بعمليات سرية» لحساب وكالة الاستخبارات المركزية، فليس من الصعب تصور العودة إلى الأسلوب الذي كان متبعاً قبل إصدار قانون تشيرتش- بايك في تنفيذ

العمليات السرية في الخارج. ومع انعدام الشفافية في هذه القضايا، فإن الصك الذي يكتب للشركة الخاصة بدواعي الضرورة الطارئة والملحة» يمكن أن يغطي أي شيء. والواقع هو أن أكثر العمل السري ببساطة عمل ثابت ويتصل بأمن الموظفين.

ويصرح غاري بكل ثقة: «سوف ننشر قوة لحفظ السلام بحجم لواء، ويمكنك أن تنقل هذا الكلام عني بالحرف الواحد».

إن فكرة نشر جيش خاص ليست بالفكرة المستهجنة في الولايات المتحدة لسبب بسيط هو أن الميليشيا المدعومة من القطاع الخاص ساعدت في قيام الثورة الأمريكية وتحقيق الاستقلال. والشيء الوحيد المثير للجدل هو فكرة قيام شركة خاصة بإنشاء قوة شبه عسكرية ونشرها في الميدان مقابل أجرة معلومة. غير أن غاري وجيري يؤكدان أن نظرتهما إلى الدور الحالي الذي يؤديانه هو امتداد للالتزامات المترتبة في ذمتهما بصفتهما جنديين سابقين في قوات سيل، وبصفتهما مواطنين أمريكيين. وللإنصاف أقول: إن جاكسون لم يقل إن بلاك ووتر مستعدة لنشر جيش لمصلحة أي زبون وفي سبيل أي قضية. وقد فاته أن يقيّد عباراته الطنانة ومبالغاته في تسويق خدمات شركته، فنسي أن يضيف عبارة «في خدمة الحكومة الأمريكية»، ونظراً لكونه من الجنود السابقين في قوات سيل، وأنه محاط بجنود سابقين من الجيش الأمريكي ومن قوات الشرطة، فإن ذلك القيد يكون مفهوماً ضمناً. وليس لدي أي شك في أن غاري وجيري لن يوقعا عقداً يتعارض مع ما تعتقده القيادة الأمريكية أنه من المصالح الاقتصادية والأمنية للولايات المتحدة. لكن إذا أخذنا في الحسبان سجل وكالة الاستخبارات المركزية في الانفلات والعدوانية في الأيام التي سبقت تشريع تشيرتش - بايك والرقابة النيابية، فإن ممارسة النشاط وفق أوامر القادة الأمريكيين سيكون على القدر نفسه من المشكلات المعقدة والمشينة. وهنا في أرض كارولينا الشمالية السبخة، يصر غاري جاكسون- وهو محق في اعتقاده هذا- على أن الجيش الخاص يمكن استخدامه لتحقيق أهداف خيّرة.

قلة هم الذين يملكون الموارد الكافية لتجنيد وتدريب، ونشر جيش خاص، غير أن صاحب شركة بلاك ووتر، إريك برنس لديه تلك القدرات والموارد. ويعمل برنس هذه

الأيـام علـى نشر هـذه الرسالة حين يتنقـل بين ردهات المبـاني الحكوميـة في العاصمة واشنطن، وفي لانغلي، والبنتاغون، ووزارة الخارجية.

أرباب الصناعة الجديدة

يعـد بار الرؤسـاء الرياضي الواقع في فنـدق رينيسانس في واشنطـن العاصمة مكاناً غريبـاً لعقـد لقاء عمل بين سيّد وأمـير[1]. وقد قام كل من اللورد ويستـبري أحد مؤسسي شركة هارت الأمنية؛ وجورج سيم مدير العمليات في الشركة؛ وإريك برنس بالإعداد لهذا اللقـاء في العاصمـة الأمريكية بغية التحـاور بشأن العمل والتعاون المشـترك. وصلت أنا، وويستـبري، وسيم قبل الموعـد وجلسنا في زاوية فارغة من البـار حرصاً على خصوصية وسرية الحديث.

بلغ اللورد ويستبري، أو ريتشارك نيكولاس بيثيل كما كان اسمه قبل أن يرث لقب أبيه، منتصـف خمسينيـات عمره، وهو أحد الرمـوز البارزة في صناعة الأمـن الخاص، وأحد أقدم المؤيدين المتحمسين للتوسّع في نشاطها. وهو ضابط سابق في القوات الجوية الخاصة البريطانية «ساس»، ويغلب عليه الهدوء وراحة البال، ويستخدم عوينات مخططة الإطار، وتبدو عليه أبهة الرجل الإنجليزي الثري بقميصه المفصل يدوياً ومعطفه الصوفي الأزرق الداكـن، ويتدلى شعـره الفضي إلى أسفل كتفيه، ويتحدث بلهجـة طبقة النبلاء، غير أن مسلكه يعكس تصرفات المراهق الداعر.

أمـا جورج سيم فهو الشخص المسؤول عن العمليـات في شركة ريتشارد، وهو شخص يحـب المبـادرة، وتحقيق الإنجـازات، وصاحب خـبرة طويلة في القـوات الجوية الخاصة البريطانية. وهو رجل أنيق، منفتح، جاد لا يعرف الهزل، وتبدو عليه سمات رجل الشرطة في بلدة صغيرة، ويتحدث بفخر واعتزاز عن نشأته ابناً لعامل في مناجم الفحم الحجري، ولا يخفي إعجابه باللورد ويستبري، ويصفه «بالأسطورة»، ويعزو جورج الفضل إلى اللورد ويستبري في وضع الإستراتيجية التي أرغمت جيش التحرير الإيرلندي على الجلوس حول

1- الاسم الأخير من مالك شركة بلاك ووتر هو برنس أي الأمير، أما الشخص الآخر في الاجتماع مؤسس شركة هارت فيحمل لقب لورد في بريطانية ويعني السيد.

طاولة المفاوضات، مع أنه لم يقدم مزيداً من التفصيل حول هذا الادعاء. ويقع جورج وريتشارد على طرفي النقيض في الجيش البريطاني- فريتشارد ضابط ومن طبقة اللوردات، في حين أن جورج، واسع الاطلاع والقراءة، وحاد الذكاء من الطبقة العاملة.

أنشأ اللورد ويستبري عدداً من الشركات الأمنية الخاصة، وهو الآن يعد القوة الدافعة وراء شركة هارت. ويرأس هذه الشركة شخص سويدي حاذق اسمه أولي صندبيرغ، ويتمتع بخبرة في إدارة وكالة للدعاية والإعلان وشركة شحن. ويعد ريتشارد نجمهم الساطع الذي «يخلق لهم فرص العمل» مستخدماً شهرته في أوساط الجيش البريطاني لحشد الدعم وتوفير عقود جديدة للشركة.

بدأت الشركات الأمنية نشاطها في المملكة المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، حين قام مؤسس القوات الجوية الخاصة البريطانية السير ديفيد ستيرلنغا بإنشاء خدمات كيلو ألفا (كاس) اختصاراً؛ وهي منظمة تهتم بجمع المعلومات عن الجنود السابقين في القوات الجوية الخاصة، بغية الاستمرار في تقديم الخبرة والخدمات الأمنية للعملاء المحليين والأجانب. وما زالت شركات بريطانية مثل شركة أوليف، وكرول، وبيغرام، وأي كي إي، تقدم خدمات متكتمة للجنود السابقين من القوات الجوية الخاصة. ويبقى «التخفي» هو أسلوب العمل المتبع لدى الجنود السابقين في قوات ساس.

قال لي اللورد ويستبري، بعد أن نفض الرماد من «سيجاره» ماركة روميو جولينا في المنفضة أمامه: «إن أفضل العاملين في هذا القطاع هم فتية هارتفورد»، أو ساس. إن باستطاعة القوات الجوية الخاصة ... الانتشار فرادى إذا دعت الضرورة إلى ذلك. وإذا طلب إليهم أن يبقوا عيونهم على هذه المجموعة أو تلك، فإنهم يؤدون التحية، ثم ينطلقون تنفيذاً للأوامر». ويتميّز الأفراد السابقون في القوات الخاصة البحرية بالقدرة على القيام بعدد من المهام في آن واحد، وبالمرونة في تعاملهم مع المشكلات المعقدة، وهذه نتيجة لأربع وستين سنة من الخبرة العملية في ساحة المعركة وفي العمليات المضادة للإرهاب». والمصدر الآخر للمتعاقدين العسكريين البريطانيين هو أسطول القوارب الخاصة، وهم من سلاح البحرية الملكي حتى النخاع. غير أن ويستبري يعدهم مربعاً مثبتاً في حفرة

مـدورة حـين يحاولون العمل في مجـال المتعاقدين الأمنيين؛ لأنهم يفتقـرون إلى المعدات اللازمـة للمشهد المعاصر «ويجب ألا يتركوا وحدهـم من دون رقابة». ويضيف ويستبري: «إن قصص نجاحهم يمكن أن تكتب على جلد خصيتي الهمستر[1]».

وبعـد تقاعده من الخدمة في القـوات الجوية الخاصة، التحق ريتشـارد بيثيل بشركة ديفينسـ سيستمز المحدودة عام 1991، وهـي شركة أسسها أليستر وريسون، وهو جندي سابـق في القـوات الخاصة البريطانية ساسـ- 22 وشغل أيضاً منصـب ضابط سابق في قـوات الحرسـ الإسكتلندي. ومع أن مؤسسـ القوات الجوية الخاصـة البريطانية ديفيد ستيرلينغ قد أقام شركته الصغيرة للاستشارات في لندن، إلا أن الهيكل المؤسسي لتقديم المهـارات العسكريـة لم يظهر إلا بعد إنشـاء ديفينس سيستمز المحـدودة. وقامت شركة البـترول البريطانيـة باستخـدام تلك الخدمـات في المناطق التـي تكون فيهـا عملياتها، وموظفوهـا أهدافـاً مقصودة للثوار، والمجرمـين، والجماعات المسلحـة، وفي الدول ذات الموارد المحدودة أو التي لا تستطيع توفير الأمن.

ومع أنه يمكن عدّ ديفينس سيستمز ليمتد أول شركة أمنية خاصة في العصر الحديث، إلا أن النمـوذج الـذي قامت عليـه يشابه إلى حد بعيـد استخدام «الحواجـز» أو الجنود المحليـين تحت إمرة ضباط أجانب لتوفير الحمايـة للممتلكات الاستعمارية في مناطق ما وراء البحار. وأصبحـت ديفينس سيستمز نموذجاً للشركات الأخرى التي أدركت أن ثوار المقاومـة يمكنهم تحقيـق أهدافهم بسهولة عـن طريق مهاجمة الشـركات غير المحمية، بديـلاً عن الأهداف العسكرية. ووجـه بعض المراقبين تهمة الارتزاق إلى بيثيل؛ لأنه يقوم بتدريـب حراسـ محليين من أجل حماية حقول نفط الشركـة البريطانية للبترول في دول العالم الثالث من هجمات الجماعات المسلحة، غير أن كلاً من بيثيل وموريسون أكدا بكل وضوح أنهما قدما التدريب اللازم فقط، وأنهما لم يكونا متورطين في العمليات.

وفي عام 1997، باع بيثيل وموريسون حصتهما في دي إس إل التي سجلت دخلاً سنوياً تجـاوز خمسة ملايين جنيه إسترليني إلى شركـة آرمور هولدينغز مقابل 26 مليون جنيه

1- الهمستر حيوان من القوارض يشبه الفأر والجرذ، ولكنه أقصر ذيلاً وأنظف طبعاً من الفأر؛ ولذلك يتخذه بعض الناس في الغرب حيواناً أليفاً، ويسمى في العربية أيضاً قداد.

إسترليني، وهي شركة لصناعة العربات المصفحة في مدينة جاكسون فيل بولاية فلوريدة الأمريكية. ثم تحولت شركة آرمور هولدينغز إلى شركة آرمورغروب وأصبحت تقدم خدمات عسكرية في العراق وحول العالم. ثم شرع مؤسسا شركة دي إس إل بالبدء في تأسيس شركات أمنية جديدة.

أسس بيثيل في يوليو من عام 1999 شركة هارت وشركة أخرى أطلق عليها اسم شركة غلوبال مارين سيكيوريتي (شركة الأمن البحري العالمية) وهذه الأخيرة متخصصة في تقديم خدمات الأمن والحماية البحرية. ومن أوائل المشروعات المبكرة التي نفذتها شركة هارت هو العمل لدى الرئيس الصومالي؛ إذ تعد الرسوم التي تحصلها الحكومة الصومالية من سفن صيد الأسماك في مياهها الإقليمية شريان الحياة للصومال. واستخدم أرباب شركة هارت روابطهم الشخصية بالرئيس الصومالي لعرض برنامج يهدف إلى منع تعرض مناطق الصيد الصومالية لأعمال القرصنة البحرية.

ويفسر جورج الموقف قائلاً: «كانت الصومال هي مشروعنا الأول الكبير، وكانت مهمتنا الأساسية هي إصدار تصاريح الصيد لسفن صيد الأسماك التي تعد مورداً مالياً مهماً للحكومة الصومالية. والصيد الرئيس هو سمك التونة- وهو صيد ثمين. وأسماك التونة ذات الزعانف الزرقاء هي أرقى أنواع التونة. ويمكنك الحصول على عشرين ألف دولار من سمكة تونة واحدة. لذلك قمنا بعملية حسابية بسيطة. أمامك المصاريف الثابتة، وهناك الدخل الإجمالي المشترك بين حركة السفن القادمة والغرامات، ولكن عليك أن تكون حذراً في موازنة الأمور؛ لأن الزيادة في التشدد تؤدي إلى زوال الصيادين وتوجههم إلى أماكن أخرى. وبالمثل فإن التساهل يؤدي إلى زوال الأسماك. وقد خولتنا الحكومة الصومالية بحجز السفن المخالفة ومصادرتها. إن هذه الفكرة لو طبقت تطبيقاً صحيحاً لجلبت الملايين من الأرباح».

«كانت مهمتنا هي تنظيم هذا القطاع والتثبت من حسن إدارته، وعليك توخي الحذر في تعريف من هم القراصنة. كنا نجلس على رأس القرن الإفريقي ونشاهدهم وهم «يشفطون» الموارد البحرية. لقد قمنا ذات مرة باحتجاز قارب أسباني كان يمارس الصيد

دون ترخيص. وهذه الممارسة تعود إلى مئات السنين. احتج الأسبان وقالوا: إننا قراصنة إنجليز. كان العمل ممتعاً. ثم اندلعت الحرب الأهلية، وانهارت الاتفاقية».

هناك مشروعات كثيرة قام بها جنود سابقون كان مصيرها الإخفاق من جراء فساد الحكومات المحلية. ففي سيراليون، أخفق مشروع مشابه قام به مرتزقة سابقون من شركة النتائج التنفيذية لسبب بسيط هو أن شركات الصيد وجدت أن رشوة المسؤولين الحكوميين أقل تكلفة من دفع الرسوم، وبذلك تمكنت من الالتفاف على دفع الرسوم أو التهديد بتوقيع الغرامة.

كانت المهمة الأولية لشركة هارت في العراق هي توفير الأمن والحماية لوسائل الإعلام. ويوضح جورج قائلاً: «حين بدأت هذه الحرب، كنت أتولى حراسة محطة الـ «بي بي سي». وهناك مجموعة أمنية خاصة داخل «بي بي سي» تسمى مجموعة كريون».

ولما بدأت الفوضى وحالة عدم الاستقرار بالانتشار في العراق، فازت هارت بسرعة بعقد لحماية خطوط الكهرباء. «كنا في أوقات مجنونة، وارتفع عدد الموظفين العاملين في الشركة من خمسين إلى سبعين شخصاً إلى مئة وسبعين في شهر واحد. وكان كثير من الأشخاص يأتون ويذهبون، كنا نبحث عن المتقاعدين العسكريين، لكننا كنا نفضل توظيف الأشخاص الذين نعرفهم. كانت الأخبار تنتقل من شخص لآخر. كانت هارت تتمركز قريباً من مدينة آيانبا في جزيرة قبرص؛ لذلك كنا ندرك خفايا العمل في المناطق البعيدة». ويدرك جورج أيضاً أن المتعاقد الأمني الذي يعمل بعيداً عن الشاطئ يكسب راتباً أكثر من الأمريكي الذي يدفع جزءاً من راتبه للحكومة عن طريق الضرائب.

لم تستفد الشركات الأمنية الخاصة البريطانية من العراق وحسب، بل عملت على خلق توليفة أمريكية بريطانية للاستفادة من الحرب العالمية على الإرهاب. وقد عملت خبرة بيثيل الواسعة في القوات الجوية الخاصة البريطانية بدءاً من أفغانستان إلى جزر الفوكلاند إلى عُمان وإيرلندة الشمالية إلى العراق، مضافاً إليها خبرة جورج سيم المشابهة بصفته قائد فوج برتبة رقيب أول في قوات ساس 22، على تعزيز موقع شركة هارت في أماكن عجيبة. وقد تعلم جورج من عمله في ساس أن الإفراط في إنفاق المال أو العنف لا

يحقـق سـوى القليل. ويبين أن استخـدام الحد الأدنى من القوة يجـب أن يكون مصحوباً بـذكاء إنسـاني جيد: «إن لدينا طريقة محددة خاصة في أداء العمل. إن ما يحفزنا في أي يوم من الأيام هو التهديد والانطباع الذهني عن التهديد. ونحن نستخدم الحد الأدنى من القوة اللازمة. إذا كنت تتنقل بين الناس طوال اليوم شاهراً سلاحك في وجوههم ومطلقاً عليهم النيران، ألا تعتقد أن هذه النيران سترتد عليك عاجلاً أم آجلاً؟

ثمـة فارق شاسع بين طريقة عمل الشركات الأمنيـة البريطانية والشركات الأمريكية مـع أنهمـا يعملان في حقل واحـد. فالحارس الشخصي الذي يعمـل في شركة بلاك ووتر يحـاول تحقيـق السلامة والأمن عن طريـق السير بعدوانية وإظهـار القوة، في حين يتجه الأسلـوب البريطـاني إلى الاعتمـاد على مزيـد من الأعـوان المحليين والتشبـه بالسكان المحليـين والاختلاط بهم والحرص علـى عدم تمايزهم؛ كي لا تلحظهم عيون المجموعات التـي تسعى إلى مهاجمتهم. وتستدعي هذه الفلسفـة أن تعمل هارت مع العراقيين الذين يجندهم الزعماء العراقيون المحليون -وهم المصدر الحقيقي للسلطة والتأثير في المنطقة المكلفون بحمايتها- وطبعاً هذه المعلومة حول من هو صاحب الأمر والنهي لا تتطابق دوماً مـع آراء جيش الاحتلال. وقد قامت أجهزة الاستخبـارات العسكرية الأمريكية بالتحقيق مـع أحد شيـوخ القبائل حول احتمال تعاونه مع المقاومة العراقيـة، ولكن في النهاية كانت نهايـة هذا الشيخ على يد المقاومة التي دبرت عملية اغتياله بسبب تعاونه مع الأمريكيين. وبعـد سجل طويل في حكم إمبراطورية كانـت تواجه التمرد والعصيان في بعض الأحيان، أتقـن البريطانيـون التفريق بين درجـات اللون الرمادي الموجـودة في طبقات مجموعات المقاومة. وتعهد شركة هارت إلى أشخاص أجانب، وهم في العادة جنود وضباط سابقون من بريطانية، وجنوب إفريقية، والولايات المتحدة، بمهمة قيادة فرق الحراسة الشخصية في شركـة هـارت التي تستخدم حراسـاً عراقيين. يقول جورج: «لدينـا ألفان وخمس مئة عراقـي يعملـون في شركتنا، ويتقاضـى كل منهم أجراً مقداره عشـرة دولارات في اليوم. وهـذا الإجراء له جانب إيجابي دوماً، وهذا من شأنـه أن يحسن أوضاعهم الاقتصادية، لكنّ هناك آثار سلبية؛ فالأشخاص الذين لا يحصلون على الوظيفة سيشعرون بالغضب». ويستخـدم الفريق سيارات محلية مستأجرة أو مشتراة، ويبقون أسلحتهم أسفل النوافذ.

ويتحركون بأقل قدر من الصخب والجلبة. ويضيف جورج: «وهذا شيء تعلمناه في إيرلندة الشمالية. ولا يختلف الأمر عنه في العراق».

واستخدام هارت لأفراد عراقيين يعطيهم فهماً أفضل للأوضاع، غير أنه لا يخلو من جوانب خطيرة؛ ذلك لأنه ليس من المستبعد على «الجيش الكبير» مهاجمة واحدة من القوافل الأمنية الصغيرة. وفي أحد الحوادث، أقدمت قافلة عسكرية أمريكية على إطلاق النار على قافلة أمنية تابعة لشركة هارت، فأودت بحياة فتاة عراقية كانت تعمل مترجمة للفريق وكان ذلك في أول يوم من عملها في الشركة. وبعد أن فرّت القافلة الأمريكية، جاءت قوة رد سريع أمريكية لتهاجم قافلة هارت مرة أخرى. وربما كانت هارت تواجه خطر إطلاق النار عليها من الأمريكيين، إلا أن من الواضح أن قوافلها الأمنية تفوت أنظار المقاومة العراقية، مما يجعل هذه الشركة تتمتع بأدنى معدلات القتل والإصابة في صفوف العاملين فيها مقارنة ببقية الشركات الأمنية الغربية في العراق.

وصل إريك برنس إلى الاجتماع متأخراً، وكان يبدو أصغر من عمره الحقيقي الذي توسط الثلاثين. وكان يلبس بذلة محافظة أنيقة، ويضع دبوساً يحمل العلم الأمريكي على طية صدر معطفه. وكانت قصة شعره القصير جداً أكثر ملاءمة لضابط في سلاح البحرية منها لرجل ثري من أرباب الصناعة. وكما ذكرت من قبل، إريك هو المالك الوحيد لشركة بلاك ووتر. وتنتشر إشاعة هنا تقول: إن شركته تدر دخلاً سنوياً قدره 800 مليون دولار. ويقول النقاد: إن الدخل الإجمالي لشركته في أحسن الأحوال هو 600 مليون دولار. وثمة تكهنات تقول: إن عدد كبيراً من العمليات التي تتولاها شركته لا تدر ربحاً نظراً لإصراره على العقود ذات السعر الثابت. ويشعر إريك اليوم بالنشوة والحبور؛ لأنه فاز بعقد بعدة ملايين لتقديم الدعم لبرنامج القضاء على المخدرات في أفغانستان، وحل محل شركة تربل كانوبي في عقودها مع وزارة الخارجية الأمريكية في شمال العراق. وتعد الموازنة بين اللورد ويستبري المتئد الحذر وبين إريك برنس المتقد المندفع أمراً مدهشاً يعكس الفارق في الثقافة والأسلوب الذي يتبعه كل منهما في ممارسة العمل الذي يؤديه.

ينحدر إريك برنس الذي سبق له أن خدم في قوات سيل من مدينة هولاند بولاية ميتشغان الأمريكية، وهو مثال نادر على وريث ثري التحق بالجيش لسبب وحيد هو خدمة

الوطـن. فتح أبوه، إدغر برنس، متجراً صغيراً عـام 1965 لصب السبائك المعدنية أطلق عليـه اسـم برنس مشين كوربس. وبعـد بضع سنوات من ممارسة العمـل في هذا المتجر، ازدهـر العمل وتطورت تجارته وبدأ المتجـر الصغير بتطوير قطع غيار ومكونات تدخل في صناعـة السيارات. واستثمـرت الشركة قسماً كبيراً من أرباحها في تشييد مراكز للتسوق وفي قطاع العقارات، وتوسعت في النهاية حتى أصبح لديها موجودات تتجاوز مليار دولار. وبهـذه الثروة الجديـدة، قام إدغر بتأسيـس مجموعة برنـس لإدارة إمبراطوريته المالية المتنامية من العقارات، والمصانع، والاستثمارات.

كان إدغـر وزوجه يشاركان بفاعليـة في النشاط الاجتماعي والقضايـا المحلية، وكانا من الأتبـاع المخلصين للمذهب الكالفيني المسيحي، وأسهمـا في تعزيز مصالح المسيحية المحافظـة. بدأ إريـك عمله في الخدمة العامة مـن قبل حين هيأ له أبـوه فرصة للتدريب العملـي في مجلس أبحـاث الأسرة، وهذا المجلس هو جماعة ضغـط تعمل في سبيل تعزيز القيـم الأسرية، وتتلقى تبرعات سخية من أبيه، وفي عام 1992، أمضى إريك ستة أشهر مـن العمل التطوعي في حملة جورج بوش الأب للرئاسة، لكنه غيّر ولاءه وتحوّل إلى العمل في حملة بات بيوكانون للرئاسة.

التحـق إريك بكلية هيلسيلديـل الخاصة ذات التوجهات المؤيـدة لمذهب حرية الإرادة (ليبريتيرينزم) قبل أن ينتقل إلى الأكاديمية البحرية، ولكنه قدم استقالته قبل أن ينهي متطلبـات تخرجـه في الكلية، ولكن ليـس قبل أن يتعرف إلى جوان، الفتـاة التي أصبحت زوجتـه في المستقبل. انتسب إريك بعد تركـه الأكاديمية إلى سلاح البحرية، وحصل على رتبـة مـلازم أول، وخدم برنـس مدة أربع سنـوات في قوات سيل فريـق- 8 (المتمركز في مدينة ليتل كريك بولاية فيرجينيا) قبل التغير المفاجئ والمثير الذي طرأ على حياته.

أصيب إدغر برنس عام 1995، بنوبة قلبية حادة توفي على إثرها، ووجد إريك برنس، الذي كان يبلغ من العمر وقتها سبعة وعشرين عاماً، أن قيمه الأسرية، وأخلاق العمل التي يؤمن بها، تلزمه أن يتولى إدارة العمل اليومي لمجموعة برنس. وزيادة في محنته، اكتشفت زوجـه أنها مصابة بالسرطان. فاضطر إريك إلى ترك سلاح البحرية للقيام بمسؤولياته الجديـدة، واتخذ الورثة قراراً ببيـع القسم المتعلق بصناعة السيارات إلى شركة إس سي

جونسون كونترولز مقابل 1.35 مليار دولار، واضعاً بذلك أسرة برنس في قائمة الأسر الأكثر ثراءً في أمريكة. وبعيداً عن نطاق التجارة، تحوّل برنس إلى المذهب الكاثوليكي واستمر في المؤسسات التي تهتم بالقضايا الدينية، وحقوق الإنسان، والقضايا السياسية، كمنظمة التعاضد المسيحي الدولية، ومعهد السياسات العالمية، والحزب الجمهوري.

وفي منتصف عام 1997، بدأ إريك بأعمال الحفر في قطعة شاسعة من الأرض تبلغ مساحتها ستة آلاف اكر في مقاطعة مويوك بولاية كارولينا الشمالية، وهو المكان الذي أصبح فيما بعد مقراً لشركة بلاك ووتر. كانت فكرة إريك الأصلية هي إنشاء ميدان للتدريب على الرماية لتلبية احتياجات العمليات الخاصة في المجتمع المحلي. وأسس شركة بلاك ووتر تارغت سيستمز، التي تتخصص في صناعة أنظمة مبتكرة من الأهداف المعدنية التي يمكنها العودة تلقائياً إلى وضعها القائم بعد سقوطها جراء الإصابة. ثم جاءت 11 أيلول/ سبتمبر، وساعد الاندفاع نحو أفغانستان في مولد شركة بلاك ووتر سكيورتي، وبعد أن أصبح نشاط الأمن الخاص من أكثر مشروعات إريك درأ للأرباح، بدأ إريك بإنشاء المزيد من الأقسام المساندة لهذا النشاط، مثل قسم بلاك ووتر للمناطيد، وقسم كلاب الأثر، إضافة إلى قسم خاص بالطيران في ميلبورن بولاية فلوريدة. ويضم قسم الطيران في بلاك ووتر شركة برزدنشال إيرويز (كانت في السابق شركة طيران مفلسة) وشركة إس تي آي. وقام برنس بتصميم مجموعة متكاملة من اللباس الموحد والأجهزة الخاصة بالمتعاقدين الأمنيين الذين يعملون في شركته، بل قل: زياً موحداً شبه عسكري لجيشه الخاص به. وهناك مئات من الرجال في العراق يلبسون شعار الشركة المكون من براثن دب داخل دائرة، وتسديد هدف بندقية قناص على صدورهم.

عمل إريك بمثابرة وعزم على تطوير تقنيات جديدة، وهو يحب الطائرات كثيراً، بل يقود هو شخصياً طائرته الخاصة من طراز مولي كرافان في التنقل بين مدينة تايسون كورنز في فيرجينيا الشمالية ومقر بلاك ووتر في مويوك في كارولينا الشمالية. أما أحدث ابتكارات بلاك ووتر في حقل الطيران فهو طائرة كاسا 212 التي أضيف إليها مدفعان رشاشان من نوع إي - 12، ويمكنها إطلاق أربعة آلاف ومئتي طلقة عيار 50 ملم في الدقيقة. وهذه القدرة النارية على إطلاق سبعين طلقة في الثانية توجد تياراً متصلاً من

النـار المصاحبة لإطلاق قذائـف اليورانيوم المنضب الكفيلة بتحويـل عربة مصفحة إلى شيء يشابه قطعة الجبن السويسري.

قـال لنا إيريك: إنـه يستثمر الآن في تطوير عربة مصفحة لنقل الأفراد خاصة ببلاك ووتر مصممة على غرار عربة كاسبر التي تصنع في جنوب إفريقية، وهي عربة مصفحة ذات سرعـة عاليـة، وستكون العربـة الجديدة مزودة بمحرك توربينـي أكبر من المحرك الأصلي ويعمل بالديزل، أما نوابض العربة التي تحمل الهيكل والعجلات، فستكون من صنع شركة دنيس أندرسون صاحبة السمعة الأسطورية في مجال تصنيع الحافلات المتوحشة. وحـين كان برنس يصف حافلته المصفحـة المتوحشة، وطائرته المزودة بالمدفعية، وغيرها من الألعاب، بدا كطفل متحمس في الثانية عشرة من عمره في عيد الميلاد. ويوضح برنس ببهجـة غير مقيدة: «سنقوم بتعديل العربات المصفحة من جنوب إفريقية، وسيتولى هذا التعديل الشخص الذي صنع حافلة غريفديغر (حفار القبور). وستقوم [أندرسون] بوضع النوابـض، وهي لا تبعد كثـيراً من هنا». ولما كانت أندرسـون في العادة تصمم الحافلات المتوحشـة بقوة ألف وخمس مئـة حصان بهدف وحيد هو تحطيم صفـوف من السيارات والقفز في الهواء برعونة وتحد، فإن الجمع بين هذه العربات والرجال المسلحين يبدو كأنه بعـث غريب مستقى مـن مسلسل الإثارة الرديء الذي ظهـر في ثمانينيات القرن الماضي بعنوان فريق- الألِف.

مـن بين عقـوده الأمنية المقدرة بملايين الـدولارات، يقدم إريك قـوة عمليات بحرية لمراقبـة نشاطات التهريب، وأعمال الإرهـاب في المناطق الغنية بالنفط لحساب الحكومة الأذرية، ويرتبط بعقود مع وكالـة الاستخبارات المركزية في أفغانستان وباكستان، ويقدم كذلـك حماية لوزارة الخارجية الأمريكية في العـراق، وإسرائيل، وهاييتي. ونمت شركته مـن لا شـيء إلى مراتـب الشركات الأقـدم منه في الوجـود والأكبر منـه في الحجم مثل دينكـورب، وكي بي آر، وكرول، وآرمغروب، وكونترول ريسك غروب. ونجح في دمج تركيز سياسـي، وعسكري، وأيديولوجـي، في أعماله، وهي خصيصة ميـزت شركته - كما يرى النقاد- عن نظيراتها من الشركات الأمنية المنافسة مثل إم في إم، وتربل كانوبي، ويو آي أسـ، وغيرها من الجهات المشهورة المختصـة بتقديم خدمات الجنود المسلحين. وتحتوي

النشرة الأسبوعية التـي تصدرها بلاك ووتر على تقارير عن الأخطار العالمية المستقبلية المحتملـة، وعلى تحليلات تعكـس الآراء اليمينية المتشددة، ومقـالات داعمة للحرب على الإرهـاب. وتضم الصفحة الأخيرة مقالاً بقلم قـس مسيحي. ويعد موقف بلاك ووتر من الحرب على الإرهاب أكثر تشدداً من موقف حكومة بوش. إن ما يتمتع به إريك برنس من ثروة، ومن المعارف والأصدقاء، وتأثير، وتفان في سبيل القضايا التي يؤمن بها، يجعل من بلاك ووتر الوحيدة التي ينبغي تركيز الأنظار عليها.

يحتفـظ إريك برنس بمكتب له في ولايـة فيرجينيا؛ لكي يبقى على مقربة من الخيوط التـي توصله إلى خزينـة الدولة عن طريق فرص العقود. وقد عاد لتـوّه من عرض أمام المسؤولـين في الحكومة الأمريكيـة. ويتطلب نشاطه التجاري خليطـاً دقيقاً من الزيارات حول واشنطن العاصمة. ويعرض باستمرار شرائح باور بوينت أمام أعضاء الكونغرس من الحزب الجمهوري، وأمام المسؤولين في وزارة الخارجية، وكبار ضباط البنتاغون، ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. وذكر لي أحد أصدقاء إريك أن الطموح الحقيقي لإريك هو أن يجعل من بلاك ووتر الطابور الخامس للمؤسسة العسكرية الأمريكية.

وقـد فرغ إريك اليوم من عرض أحدث عرض قدمه للحكومـة الأمريكية حول تعقب الخلايا الإرهابية في العراق، ويرى إريك أن استهداف الجنود المشاة من عناصر المقاومة هـو تضييـع خطير للوقت والمال والجهد. وقال بتحمس متقـد: «إنني أرغب في وضع خطة لتعقب صانعي القنابل... بدلاً من تعقب عناصر المقاومة، تعقب التقنية، استأصل المراكز الحقيقية للمنظمات». ثم عرض ملخصاً لخطته التي تقوم على تطوير شبكة مستقلة من الاستخبـارات لاستهـداف صانعي القنابل، ثم انتقل فجـأة إلى الحديث عن أفكار أخرى كالإسـراع في تشكيل جيش عراقي فاعل عن طريق وضع رجاله بين العراقيين في التدريب وفي المعارك.

وفي غمرة تحمسه المتقد وحيويته المفعمة حول فوائد الخصخصة، يطفح إريك بالأفكار الجديـدة، ولا يتوقـف عـن ترديد عبـارات «أفضل، أسـرع، أكثر، فاعليـة». وتأتي جميع الأفكار التي يعرضها على الحكومة الأمريكية بسعر ثابت ودون أي مخاطر على الحكومة، وتتشابك مع جهود حكومة بوش في خصخصة كل شيء بدءاً من الضمان الاجتماعي إلى

تسيير الحرب في العراق. ولا يملك إريك أن يمنع نفسه من الترويج لأفكاره حتى أمام المخضرمين من أصحاب الخبرة في هذا الحقل مثل ريتشارد وجورج. ووضح إريك كيف أنه جلب الفاعلية إلى ساحة المعركة: لقد حل عشرون شخصاً من بلاك ووتر محل مئة وثمانية وثلاثين شخصاً في وحدة تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية، وأضاف بفخر: «لقد كان الجيش بحاجة إلى الدعم من ذلك العدد من الجنود لتقديم القدر نفسه من القوة التي قدمناها بعشرين شخصاً».

لا يعبأ إريك، وجورج، وريتشارد، كثيراً بالنقد الذي يوجهه أساتذة الجامعات إلى قطاع الأمن الخاص. ويقول إريك: «لقد حاولنا دعوة بيتر سينغر [من معهد بروكينز، مؤلف كتاب عساكر الشركات] لزيارتنا في العراق. ولكنه يرفض الذهاب، وحين سألته عن رأيه في نقد سينغر المستمر لاستخدام المتعاقدين الأمنيين المستقلين غير الخاضع لتنظيم الدولة، فكر إريك قليلاً، وقال ساخراً: «دعني أقلْ لك: إن بيتر سينغر يداه ناعمتان جداً».

أما شركة هارت، فأكثر خيبة أملها ليست من النقد النظري للتنظيم الذي يخضع له نشاطها، ولا من العقبات التي تعترض حصولهم على عقود عمل في المناطق التي مزقتها الحرب في إفريقية. يعبر جورج عن ارتياب شديد من قيام الولايات المتحدة بمنح عقد بملايين الدولارات لشركة مبتدئة مثل شركة إيجيس التي يرأسها شخص معروف من المرتزقة هو تِم سبايسر، ولمجموعات ثبت بالدليل العملي عدم كفايتها كمجموعة كستر باتلز التي تخضع لتحقيق بسبب عدد من المخالفات.

وحاول جورج تلخيص الفكرة غير المتصورة لحصول تم سبايسر على عقد بقيمة نصف مليار دولار بقوله: «إنني أسمي ذلك هرطقة تِم» ومجرد التفكير في ذلك يكفي لإصابة جورج بالسكتة القلبية. «إنه شخص فارغ أجوف، يحاول أن يصنع لنفسه شيئاً مهماً، لقد حاول الانتساب إلى القوات الجوية الخاصة البريطانية ولكنه أخفق، إنه بحاجة إلى من يختبر قدراته .. يجب أن نتخلص من الأدعياء، وتِم هذا هو على رأس القائمة».

وعـادة ما يلتزم العاملون في الأمن الخاص الصمت حيـال الانتقادات التي توجه إلى الشـركات الأمنيـة الأخرى والعاملين فيها، انطلاقاً من الاعتقـاد بأن التقليل من تسليط الضوء على إخفاق أفراد في هذا القطاع فيه فائدة للمجموع. ويعكس أحد أشد الانتقادات التـي يوجهها ريتشـارد إلى سبايسر البيئة الكتومة لهذه الصناعـة حين قال: «لقد أفسد وأساء حين توجه إلى الصحافة لعرض قضيته. ولا تحل الأمور بهذه الطريقة».

وبالنظـر إلى الموقف الدفاعي المشترك الـذي يتميز به المنتمون إلى هذا القطاع، فإن استمـرار جورج في ذكـر تم سبايسر جدير بالملاحظة، حتى في ضـوء الأخطاء الواضحة التي ارتكبها سبايسر: «إنه – أي تم سبايسر- شخص بذيء غبي، تافه، حقير، لم ينجح قط في شبابه. لقد ترك أثراً سلبياً كبيراً في هذه الصناعة». وهز رأسه ممتعضًا.

أمسـك اللورد ريتشـارد لسانه عن فاحش القـول في وصف سبايسـر، ولكنه مع ذلك عبر عن ازدرائه لوسائل الإعلام على قولها: إن سبايسر كان عنصراً في القوات الخاصة البريطانيـة: «لقـد أخفـق تم في اجتياز متطلبات الالتحـاق بقوات ساس، ومـع أنه يتمتع باحترام في الجيش البريطاني، إلا أنه لم يكن يعد من المبرزين في الميدان».

وربمـا تأتي نظـرة ريتشارد المتسامحـة تجاه سبايسر مـن معرفته السابقـة له. «إنه شخصـ يعمل بجـد ومثابرة. وحين طلب إلى سبايسر العمل مـع شركة النتائج التنفيذية وشركة ساندلاين جاء إلي يستشيرني. وقلت له وقتها محذراً: «إنك إذا دخلت هذا الباب، فلن تستطيع الخروج منه».

يعشـق إريك هالـة الجاذبية والغموض التـي تحيط بالمرتزقة، والشـركات العسكرية الخاصـة، والأشخاصـ المؤثريـن في هـذا المجال، مثل ريتشـارد وجـورج؛ الرجال الذين تعقبـوا القراصنة في الصومال، وقدموا الاستشارة إلى سلطان عمان، وقاتلوا الإرهابيين في شوارع بلفاس، وقدموا الحماية للأسرة المالكة في بريطانية. أما ريتشارد وجورج فهما معجبـان بالتحمس غير المحـدود والحميّة الوطنية التي يتمتع بهـا إريك التي تختلف عن النمـط الهادئ والمحافظ الذي يطغى على القـادة السابقين في قوات ساس. وتثير المبالغ الكبـيرة التـي تنفقها الولايات المتحدة في العراق لإعادة اخـتراع العجلة اهتمام ريتشارد

وجـورج. فهما يريان أن محاولة الولايات المتحـدة الدخول في صراع مع المقاومة، وحماية أعمال البناء في البنية التحتية، وحماية موظفي الحكومة والعمال في الوقت الذي تعزز فيه مصالحها التجارية؛ هو عمـل فعله جنود الإمبراطورية البريطانية، ومفوضو الاستعمار، والقراصنة التابعون لها قبل مئات السنين.

وتختلف ذاكـرة التاريخ البريطاني حول استخدام المرتزقـة والقراصنة عن نظيرتها الأمريكية؛ إذ يعود التقليد الإنجليزي في استخدام الشركات العسكرية الخاصة إلى عهد الحروب الصليبية، حين كان الأثرياء يؤلفون الجيوش الخاصة للقتال في الأرض المقدسة. ثـم ظهـر فيما بعد القراصنة أصحـاب البطولات الملحمية، والإثـارة والمغامرة من أمثال السـير فرانسيس دريك[1] والشركات الاستعمارية التي تتمتع بامتيازات ممنوحة من التاج البريطاني الذين قاموا بتوظيف جنود محليين لفتح مناطق جديدة لمصلحة الإمبراطورية البريطانيـة. وكلمة «مرتزقة» في التقليد البريطاني تثـير انطباعاً من الحيوية والاعتماد علـى الذات. أما في أمريكة، فللكلمة شعور قبيح يحيي في الأذهان واقع البطش في أنغولا، وأنباء قبائل النغ، وعصابات الكونترا، وفرق الموت في أمريكة اللاتينية، ولا تفوت مفارقة العاملين في قطاع الأمن الخاص قيام الأمريكيين وشركائهم البريطانيين بتوظيف المرتزقة في العـراق وأفغانستان. وفي حين أن الحكومة الأمريكية لديها تاريخ محدود في استخدام المرتزقـة في الخـارج لأغراض محددة بالـذات عن طريق وكالة الاستخبـارات المركزية، عملـت الحرب في العراق علـى تقديم تسويغ عصري لوضع النظـام بصيغة رسمية، وهو شيء تعلّمه الإنجليز قبل عدّة أجيال.

إن أحـد أسبـاب اللقاء بين هارت وبلاك ووتر هو رغبـة الطرفين في معرفة نوع العمل الجماعـي الـذي يمكنهما تطويـره معاً. وتأمـل هـارت في الدمج بين الخـبرة التاريخية

* مستكشف وبحار إنجليزي (1540 - 1596)، قام بنهب السفن الأسبانية في أمريكة الجنوبية بأمر من الملكة إليزابيث الأولى، وبعد ذلك عبر مضيق ماجلان الذي يفصل المحيط الأطلسي عن المحيط الهادئ أسفل القارة الأمريكية الجنوبية وتوجه بسفنه شمالاً ليرسو في خليج صغير بالقرب من مدينة تعرف اليوم باسم سان فرانسيسكو، وأعلن خضوع تلك المنطقة للتاج البريطاني. ولا يزال الشاطئ الذي رسا فيه يحمل اسمه حتى هذا اليوم. وقام بعدها باستكشافات بحرية أخرى، وكان أول إنجليزي يدور حول العالم عن طريق البحر. أنعمت عليه ملكة بريطانية بلقب فارس على إنجازاته في خدمة الإمبراطورية. (موسوعة إنكارتا بتصرف).

البريطانية ونمطها المحافظ باستخدام الخبرات المحلية تحت قيادة ضباط من الطراز الأول وبين الروح الأمريكية الشركاتية المثابرة التي تتمتع بها بلاك ووتر. وقد شجع مشروعهما المشترك باختيار العميل شركة هارت بوصفها المتعاقد الرئيس. ويسعى إريك الآن إلى توسيع مجال نشاط شركته، وتسعى هارت إلى تصدير ثقافتها القائمة على العمل الكتوم والاستيعاب إلى ثقافة بلاك ووتر المقتحمة والمتخوفة من الأجانب، المستقاة في الأصل من ثقافة قوات سيل.

ذكر إريك في أثناء اللقاء أنه يريد أن ينشئ قوة لحفظ السلام والتدخل في إفريقية، مع التركيز تحديداً على منطقة دارفور جنوب غرب السودان. وعبر جورج وريتشارد عن شعورهما بالإحباط من انعدام الاهتمام لدى الحكومات ومنظمات الإغاثة من الاستفادة من خبرات جيش خاص لحل مشكلاتهم المتعلقة بالأمن والاستقرار في إفريقية. ويوجه جورج تركيزه على الكونغو، حيث مات الملايين من البشر هناك دون استثارة اهتمام يذكر من المجتمع الدولي، وحين أخفقت قوة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة في التخفيف من معاناة السكان على الرغم من طول مكثها هناك.

ويزعم جورج أن «الكونغو تحتوي على كل شرور التفسخ الاجتماعي: الإيدز، وتجنيد الأطفال، والأمراض والأوبئة، والحروب، والجريمة، والقائمة تطول. كل شيء في كل قسم من الدراسات العلمية والإنسانية جرت الإساءة إليه في تلك المنطقة. ومع ذلك، يمكن لقوة صغيرة لحفظ السلام أن توافر الحماية الكافية للسكان بأقل قدر من الصعوبات».

ويرى إريك أن قيام الحكومات والأمم المتحدة باستئجار الجيوش الخاصة هو التطور النهائي لاستثماره التجاري في شركته الخاصة بلاك ووتر، التي تنمو بسرعة كبيرة، ولديها الاستعداد الكامل للاستفادة من توجهات حكومة بوش في خصخصة الحرب على الإرهاب. وحتى لا أنسى، راح إريك يذكرني مرة أخرى قائلاً: «إننا جاهزون لنشر كتيبة في أي مكان في العالم».

يمكن لشركة هارت بنشاطها الخارجي، ووضعها المالي الرفيع، واتصالاتها الحكومية حول العالم، أن تقدم الكثير لثقافة بلاك ووتر المصبوغة بالصبغة الأمريكية. وأعاد

جـورج أهم درس تعلمه في أثنـاء سنواته في ساس: «لكي تهزم عدوك، ليس بالضرورة أن تقتل. هناك أثر سلبي وحتمي للقتل. وحتى حين كنا ننصب الشراك في إيرلندة الشمالية، كان هدفنـا هـو القبض على المشتبه بهم وليس قتلهم، وخـبرة جندي القوات الخاصة في تلك اللحظة هي في غاية الأهمية. إنها شيء فطري. هذا ما نقدمه لهذا العالم. إنه شيء مقيت أن تطلق رصاصة تحذيرية. وليس من الكياسة ألبتة أن تطلق النار من سلاحك».

يريد برنس من هارت أن تساعده في تطوير معرفته وصقل مهاراته في العمل في المناطق الأجنبية، وهو أمر سيفيد منه كثيراً في أحدث مشروع تجاري له: شركة غريستون. وتمثل غريستـون نقطـة تحوّل لإريك؛ لأنها ليست هيئة أمريكيـة في الظاهر؛ بل شركة عسكرية خاصـة خارج حدود الولايات المتحدة، وستقوم بتوظيـف موظفين محليين بحسب التقليد الإنجليزي- فرقة أجنبية بقيادة غربية، على غرار ما كانت تفعله شركة النتائج التنفيذية، وساندلاين، وإرينز، وهارت.

يشعـر إريـك بالسعادة خصوصـاً أنه ينوي إقامـة حفل استقبال كبـير للإعلان عن فكـرة غريستـون بعـد أسبوعين. وسيقـام الحفل في فنـدق ريتز كارلينتـون في واشنطن العاصمـة، ويتوقع برنس أن يشمل الحضـور قائمة طويلة من الدبلوماسيين الذين يمثلون قطاعـاً عريضاً من الأمم، إلى جانـب رؤساء الشركات النفطية، وخبراء المال، ومصنعي الأسلحـة، وغيرهم ممـن يمكنهم الاستفادة من خدمات القـوات المسلحة المخصخصة. وسيلقي خطـاب الافتتاح كوفر بلاك الذي عمل في السابق مديراً لمركز مكافحة الإرهاب التابـع لوكالـة الاستخبارات المركزيـة الأمريكية، ويشغل الآن منصـب نائب المدير العام لشركة بلاك ووتر.

لا تبـدو رسالـة غريستون في أن تكـون شركة عسكرية خاصة متاحـة ولديها القدرات لحـل المشـكلات الأمنية علـى مستوى العـالم، كما كانت تفعـل شركة النتائـج التنفيذية وخليفتهـا ساندلايـن، رسالة غامضـة أو خافية. والهدف المباشـر في الوقت الراهن، هو تقـديم خدمات الأمن الثابـت للزبون الذي لا يمكنـه تحمل تكلفة استخـدام الأمريكيين والبريطانيين. فأجرة الجندي السابق في الجيش الأمريكي، والجيش البريطاني، أو جيش جنـوب إفريقية، تتراوح ما بـين 400 إلى 600 دولار أمريكي في اليوم الواحد. في حين أن

عناصر الغورخا، والتشيليين، والجنود السابقين من الدول النامية سعداء بتقاضي نصف أو حتى عشر ذلك المبلغ. ومع أن سوق المتعاقدين الأمنيين ذوي المهارات العالية يشهد نقصاً في العرض وزيادة في الطلب، إلا أنه يوجد وفرة في جنود الصف. وسيكون من بين الذين سيستمعون إلى الحجج التي سيعرضها كوفر بلاك لجدوى هذه الشركة في الاحتفال رفيع المستوى، الذي يتطلب لبس زي رسمي هو معطف أسود وربطة عنق فراشية الشكل، ممثلون حكوميون من الفلبين، واليمن، وإندونيسيا، وأنغولا، وروسية، وكينيا، وتونس، ودول أخرى. وربما يمكّن الجمع بين احتياجاتهم وبين عشق إريك برنس للعمليات شبه العسكرية السرية، وأفكاره المحافظة الهجومية، وفلسفته الشركاتية التوسعية في العمل، شركة غريستون من إقصاء الحدود المفروضة على الأمن الخاص.

وتقدم النشرة التعريفية بمشروع غريستون والموقع الإلكتروني الخاص بالمشروع عرضاً لخدمات التدريب، وتقويم الحالة الأمنية، وخيارات الحماية التي يمكن توقعها من الشركة. وربما فات الناظر غير المهتم ملاحظة هذه الفقرة التي صيغت بعناية:

فرق اشتباك سبّاقة:

إن عناصر غريستون جاهزون لإعداد قدراتهم بما يتناسب مع المتطلبات الأمنية القائمة، أو الطارئة لاحتياجات الزبون في الخارج. إن فرقنا مستعدة للقيام بجهود فرض الاستقرار وبسط الأمن، وحماية الممتلكات واستعادتها، وإخلاء الموظفين والعمال من أماكن الخطر في أوقات الطوارئ.

باختصار: ستقوم غريستون ببيع الخدمات نفسها التي كانت تقدمها شركتا النتائج التنفيذية وساندلاين؛ إذ كانت أولى عمليات النتائج التنفيذية تقوم على استخدام المرتزقة «لاستعادة ممتلكات توني بكنغهام، وتحديداً معدات التنقيب عن النفط؛ أما عمليتها الثانية فكانت شن حملة هجومية لدحر ثوار حركة يونيتا، بعد ستر تلك العملية بوصف عمليات تدريب؛ أما مشروعها الثالث فكان القيام «بجهود بسط الاستقرار والأمن» في سيراليون. وبالنظر إلى فرص التعاقد المتاحة أمام غريستون، فإن المستقبل يعد بزيادة الغموض حول الخط الدقيق الذي يفصل بين العمليات الأمنية الخاصة وبين

العمليات العسكرية الخاصة. ومن المستحيل التنبؤ بالوجهة التي سيقصدها جيش إريك، ولكنها بخصوص الزعمـاء الأجانب، ستقدم حتماً إضافة تحسينية كبيرة ومشروعة إلى المؤسسة العسكرية التقليدية والعمليات السرية.

بات واضحاً لي من ذلك الاجتماع أن ثمة جداراً عالياً لا يزال يفصل بين نظرة هارت الإنجليزيـة للأمن وبين نظرة الشجاعة الجديدة في عالم المحافظين الجدد. وفي حين لم يـزل حلم إريـك بِنَشر جيش خاص ينتظر التحقـق، إلا أن القائمين على شركة هارت قد سبـق لهم أن ساروا في ذلك الطريق من قبـل. وقد وضعتهم مهنتهم العسكرية في أماكن مثـل عُمـان و أفغانستان حين كانوا يقودون وحدات كبيرة مـن الجيوش المحلية، وقد طوّر كل مـن ريتشارد حـين خدم برتبة نقيب في قـوات ساس، وجورج حين خـدم برتبة رقيب أول في وحـدة ساس 22، وعلى مدى عقدين مـن الزمان مهـارات في التعامل مع أعمال المقاومـة، والحروب القذرة، والعمليات السرية، ليس من السهل اكتسابها. وفي حين يروج برنس لصورة زاهية للشركـة العسكرية ذات التقنية العاليـة، والفرسان الذين يجوبون الشـوارع، التي يمكنها حـل أي مشكلة أمنية للزبون عن طريـق استخدام القوة الكاسحة والأسلحـة المتقدمة، يقوم ريتشـارد وجورج بهدوء بالترويج لفكـرة الحلول الهادئة، التي تراعـي الثقافة المحلية. وكرر جورج مرة ثانية عبارتـه الشهيرة أمام إريك برنس قبل أن ينفض الاجتماع: «إنها تطبيق الحد الأدنى من القوة».